القلب المحطم

للكاتب الامريكى « واشنجتون إرفنج »

تعريب الأستاذ

حسن شريف الرشيدى

لا أدرى لماذا تتجه عينى دائما إلى هذا الكاتب القدير ، ولا أدرى لماذا أغرم بمطالعة قطعه الفنية البديعة ، ولماذا أؤثر أن أنقل عنه إلى العربية أكثر من أى كاتب آخر ؟ فقد نقلت عنه إلى العربية فى الجزء الأول من هـذه المجلة قطعة « الزوجة » كما نقلها كثيرون أيضاً . وأعتقد أننا مهما أجهدنا أنفسنا فى النقل ، فلا يمكننا أن نصل الى مايريده الكاتب . فان دقة وصفه للحوادث ، وقوة ملاحظته للمناظر والأشخاص ، وتحليله المتقن للخلق الانسانى ، وتصويره الدقيق للعواطف مع غزارة الألفاظ التى يستعملها فى الوصف والتى قلما يفرق بين معناها الكاتب العربى — كل ذلك يجعل النقل من الصعوبة بمكان ومع ذلك فانى أنقل له اليوم هذه القطعة بأقصى مجهود أبذله ، وعسى أن أكون قد وفقت ولو لدرجة ما — إلى غرض الكاتب .

يقول إرفنج : تعودنا دائما أن نرى الذين يحيون حياة المرح والاستهتار ويمضون أوقاتهم بين متع الحيـاة المختلفة — يسخرون من كل قصة حب — ويعتقدون أن العاطفة الخيالية إن هى الا من مبتكرات قرائح الشعراء والروائيين . ولكن ما لاحظته فى طبائع الانسان جعلنى أعتقد غير ذلك . فقد ثبت لى من ملاحظاتى أنه مهما تبلد الاحساس السطحى باعباء الحياة ، أو مهما أرغمت التقاليد الاجتماعية الانسان على الابتسام ، فلا تزال هناك نار كامنة بين أعماق أهدأ الصدور ، فاذا ما اشتعلت لسبب ما ، صارت عنيفة وربما أعقبت نتائج وخيمة . وفى الحق أنى أعتقد اعتقاداً صادقا فى الله ، وفى كل مايلقيه علينا من المبادىء ، فهل أعترف بها ؟ أعتقد فى القلوب المحطمة ، وفى احتمال الموت نتيجة للحب الخائب ، وأظن أن هذا الحب الخائب مرض قابل للشفاء عند الرجل ، ولكنى أعتقد تماماً أنه كثيراً ما يؤدى بغادة جميلة الى موت مبكر .

خلق الرجل للذة والطمع ، تقوده طبيعته الى الكفاح والجلبة فى هذه الدنيا ، وما الحب عنده الا الحلية التى يزين بها شبابه الأول ، أو هو الأنشودة التى تلقى بين فصول حياته . يبحث عن الشهرة ، يبحث عن الثروة ، يبحث عن التسلط على اخوانه بنى الانسان ولكن حياة المرأة كلها قصة حافلة بالعواطف ، القلب هو دنياها ، وبين ثناياه تبحث عن السلطان ، وفى أعماقه تطمع فى الحصول على الكنز المخبوء . تبعث بحنانها فى رحلات الحب الخطرة ، وترسل كل روحها فى سفينة الحب ، واذا ما أغرقت صارت قضيتها لا أمل فيها لأنها إفلاس للقلب .

أما الرجل فربما أثرت فيه خيبة الحب ، وسببت له آلاما مبرحة . فتكلم بعض احساسات الحنو عنده ، وتميت أمل الاخلاص فيه ، ولكنه مع ذلك يظل رجلا عاملا حياً — يبدد آلامه الفكرية بين مشاغله المتنوعة ، أو يلقى بنفسه فى تيار من السرور ينسيه آلامه . وإذا كانت خيبته شديدة الوقع ملأى بالآلام المبرحة ، فما أسهل عنده — بارادته القوية — من أن يريح نفسه من عناء مثل هذه الحياة ، تاركا وراءه عالما سهله شقاء .

ولكن حياة المرأة هى حياة الوحدة والتفكير . أفكارها وإحساساتها هما خير رفيق لها ، واذا أصاب تلك الأفكار نوبة من الحزن ، فأين تبحث المرأة عن السلوى ؟ فاذا كانت غير سعيدة فى حبها ، كان قلبها مثله مثل تلك القلعة الحصينة التى هوجمت وسلبت ، ثم تركت قاعا صفصفا .

كم من العيون التى تضىء لحظاتها ببريق الحياة قد أمست كليلة ، وكم من الخدود الموردة التى كان يترقرق فيها ماء الشباب قد حال لونها الى الاصفرار ، وكم من قوام مائس يغار الغصن من اعتداله ، قد انزوى فى ظلمة القبور ، ولا يدرى أحد سببا لانطفاء شعلة هذا الحسن ، وكما تضم الحمامة جناحيها لتخفى السهم المريش الذى نشب بين ضلوعها ، كذلك طبيعة المرأة تخفى عن العالم ماتحتويه نفسها من آلام الحب المكلوم . المرأة مخلوق لطيف ، ولذا كان حبها دائماً صامتاً خجولا ، وحتى لو كانت سعيدة فى حبها ، فانها قلما تبوح بسعادتها حتى لنفسها . واذا كان نصيبها الخيبة فانها تدفن حظها العاثر فى أعماق صدرها ، وهناك تحتضنه ويشب بين خرائب سلامها ، فتعتقد أن رغبة قلبها قد فشلت ، وأن كل بهجة فى الوجود قد زالت ، فتهمل كل ما يسبب سرورها ويجلو صدأ روحها الحزينة ، ويبعث الحياة المشرقة

البهيجة خلال عروقها . ويتسم نومها العذب بأحلامها المفزعة ، ويمتص الحزن عصارة قلبها حتى يتأثر هيكل جسمها الضعيف بأقل إصابة طارئة ، انظر اليها بعد قليل تجد الصداقة تبكى انهصار عودها الباكر ، وتعجب من أن تلك التى كانت تتلألأ بنور الصحة والجمال ، سرعان ما يضمها القبر وظلامه ، واذا سألت عن سبب ذلك الموت المبكر فسيخبرونك بأنه قشعريرة برد أوأى مرض آخر عادى . هذا بينما يجهل الجميع المرض الذى تغلغل فى عقلها ، وامتص عصارة حياتها ، وسهل وقوعها فريسة بين براثن الموت .

مثلها كمثل شجرة غضة ، هى فخر وجمال للغابة ، جميلة فى منظرها ، تضىء أوراقها الخضراء ، بينما يفتك الدود بقلبها ، فتراها تذبل فجأة حين تأمل أن تجدها ناضجة خصبة فتتساقط أغصانها على الأرض وتتناثر أوراقها الواحدة تلو الأخرى حتى يصيبها الدمار والهلاك ، فتسقط وسط سكون الغابة . وإذا تأملنا فى هذه الأنقاض الجميلة فاننا نجاهد عبثا أن نتخيل أى زوبعة أو عاصفة أمكنها أن تودى بها وتهلكها .

٭٭٭

شاهدت أمثلة كثيرة لنساء دفعن بأنفسهن نحو التلف والاهمال ، ثم اختفين تدريجيا من عالم الوجود كأنما صعدن الى السماء ، وظننت أنه يمكننى أن أقتفى اثر موتهن بالرجوع الى الادواء المختلفة التى سببت هلاكهن ، كالبرد ، أو الضعف الجسمانى ، أو الحزن ، حتى وصلت إلى الأعراض الاولى من الحب القانط . ولكن مثلا من هذا النوع قص على أخيرا ، واشتهرت حوادثه فى البلد الذى وقع فيه ، سأدلى به هنا كما روى لى تماما .

٭٭٭

لاشك أن كلا منا يذكر مأساة الشاب (ا) المجاهد الارلندى ، فانها مؤثرة جدا لدرجة أنها لايمكن أن تنسى سريعاً . ففى أثناء المحن التى عانتها أرلندا حوكم هذا الشاب بتهمة الخيانة ، ثم صدر عليه الحكم بالاعدام ونفذ فيه ، وكان لمصيره هذا رنة حزن وأسف لدى الرأى العام ، لأنه كان المثل الأعلى للشباب المتوقد الكريم الشجاع ، وكان فيه من الخصال كل ما نحب أن يكون فى الشاب ، كما كان سلوكه أثناء المحاكمة والتنفيذ مجيداً جريئا ، وسخطه القليل الذى درأ به عن نفسه تهمة الخيانة لوطنه ، ودفاعه البليغ عن اسمه ، ورجاؤه المحزن إلى الخلف فى ساعة استشهاده بأن يتعقبوا آثار جهاده — كل هذه

أثرت تأثيراً عميقا فى كل القلوب الكريمة التى حوله ، حتى أن أعداءه استنكروا وأسفوا للسياسة الشديدة التى أملت حكم إعدامه .

٥٥٥

من بين كل تلك القلوب التى أسفت لموته ، كان يوجد قلب من الصعب جداً أن نصف مبلغ حزنه ، ففى أيام سعادته الأولى نال محبة غادة جميلة كانت ابنة لأحد المحامين الدائمى الصيت ، أحبته بكل مافى قلب المرأة من جذوة وحماس حين تحب لأول مرة ، ولكن حين أصابته يد الزمن ، وأظلم الجو حول اسمه بظلام العار والخطر ، ونظم كل قانون ضده ، كان حبها له أكثر جذوة واشتعالا ، وذلك لآلامه التى يعانيها ، وإذا كان مصيره الذى لقيه قد أوقظ الرحمة والعطف حتى فى قلوب أعدائه ، فلنتصور مبلغ ألم تلك التى ملأت صورته كل روحها ! ولأجل أن تتصور مبلغ مثل هذا الأسى ، دع شخصا يقص عليك كيف أغلقت أبواب القبر فجأة بينه وبين أحب مخلوق لديه على وجه الأرض . وكيف يجلس على مدخل القبر كشخص أصبح وحيداً فى دنيا قاحلة رحل عنها كل ما كان جميلا محبوبا لديه .

ولكن لنتصور فزع ورعب مثل هذا القبر المخيف الشأن ! أليس فيه من ذكرى جميلة يمكن للذاكرة أن تسكن اليها ، فتخفف من وطأة ألم الفراق ؟ لا شىء من تلك المناسبات اللذيذة ، ولو أنها محزنة تحبب منظر الوداع — ولا شىء يديب الحزن إلا تلك الدموع الرطبة المباركة التى تتساقط كالندى من السماء ، أو تنعش القلب فى ساعة الفراق المؤلمة .

ومما زاد فى ألم وحدتها ، أنها تسببت فى استياء والدها باخلاصها التعس ، فطردت من منزل والديها ، ولكن إذا أمكن أن يخفف العطف وشفقة الأصدقاء من هول الصدمة التى صدمت بها هذه النفس الحساسة — فانه لم يؤثر فيها مطلقا عزاء ما ، لأن الارلنديين شعب كريم الاحساس سريع التأثر . وقد أحاطتها العائلات المثرية الراقية بكثير من العطف والحنو فأخذتها إلى المجتمعات وحاول الجميع بأنواع من التسلية والمسرات أن يبددوا كآبتها ويزيلوا عن ذاكرتها مأساة حبها ، ولكن ذهبت جهودهم كلها ادراج الرياح ، إذ كثيراً ما تقسو صدمات النكبة حتى تتلف وتحرق نفس الانسان ، ثم تنفذ إلى مبعث سعادته فى الحياة فتجعله هباء ،

بحيث لا يرجع لنضارته مرة أخرى . وما كانت لتعارض فى زيارة أماكن السرور ، ولكنها تكون فيها وحيدة كما لو كانت فى أعماق خلوتها ، فتسير شاردة الفكر فى خيال محزن ، لا تشعر بما حولها من دنيا صاخبة ، تحمل فى ثنايا نفسها حزنا عميقاً باطنياً يسخر من كل مجاملات الصداقة .

و إن الذى قص على قصتها سيدة رآتها فى إحدى حفلات التنكر ، وما كان ليوجد مظهر يؤلم النفس ، يقابله الانسان فى مثل هذه الحفلات أكثر من هذا الشقاء وهذه التعاسة المجسمة — تروح هنا وهناك كالخيال ، وحيدة كئيبة ، بينما الكل حولها ممتلئو بهجة — ترتدى كل زخرف من الملبس بينما هى شاحبة اللون شاردة الفكر من الحزن . كأنها تحاول عبثاً أن تخدع قلبها المسكين بأن تنسيه — ولو لحظة — مابه من مبرح الحزن .

وبعد أن جالت خلال الغرف الفخمة والمجتمع الحافل ، وهى شاردة العقل ، جلست على أحد مقاعد الموسيقى ، ثم دارت بنظرها فى الفضاء برهة بعين زائغة — مما أظهر أنها غير شاعرة بما حولها من المناظر البهيجة — وبدأت ، بكل ما فى قلبها المريض من رغبة تنشد أنشودة حزينة . وقد كان صوتها الطبيعى حاراً ولكن فى هذه اللحظة كان هادئاً ومؤثرا كأنها تنفس عن روحها ما فيها من الأسى ، حتى أنها جذبت نحوها جمعا صامتاً ساكناً تترقرق فى ماقيه دموع اللوعة .

***

أثارت قصة هذه المرأة المخلصة الحساسة اهتماما كبيرا فى هذا القطر المشهور بالتحمس . فأحبها ضابط شجاع حبا ملك عليه كل قلبه ، إذ شعر بأن هذه المرأة التى تفانت فى إخلاصها للميت، لابد أن تصدق فى حبها للحى؛ ولكنها أبت عليه إباءً تاما كل محاولاته ، لأن كل أفكارها كانت مشغولة بذكرى حبيبها الراحل . ولكنه مع ذلك استمر فى تحببه إليها ، فتوسل إليها — لا بحنانها — بل باحترامها الشخصى ، وساعده على ذلك اعتقاده بكفاءته الخلقية لها ، وحاجتها إلى عائل تعتمد عليه ، لأنها ما كانت تعتمد إلا على معونة الأصدقاء ؛ وباختصار نجح أخيرا فى نوال يدها ، ولكنه تأكد تماماً أن قلبها لا يزال ملكا لغيره كما كان .

أخذها معه الى جزيرة صقلية مؤملا أن تستفيد من تبدل المناظر ، وتزول عن أفكارها

أحزانها السابقة ، فكانت مثال الزوجة الوفية المحبوبة ، وبذلت كل جهدها لتستعيد سعادتها ، ولكن لا شيء أمكن أن يشفي هذه الكآبة الصامتة المضنية التي تغلغلت في أعماق روحها . وساءت حالها من الحزن تدريجياً حتى واراها القبر أخيراً ، فذهبت ضحية قلبها المحطم .

***

وفيها كتب « مور » الشاعر الأرلندي المعروف هذه الأبيات :

هي بعيدة عن الأرض التي ينام عليها بطلها الشاب
والمحبون حولها يتألمون
ولكنها تشيح عنهم بنظرها وتبكي
لأن قلبها يضطجع في قبر حبيبها

تغني الأنشودة الموحشة لوطنها المحبوب
وهي التي كان حبيبها يحب كل نغمة منها
آه ! فلما يفكر الذين يطربون من شدوها
كيف يتحطم قلب هذه الآلة التي تشدو ؟

لقد عاش لحبه ، ومات من أجل وطنه
وكانا هما كل ما ربطه بالحياة
فسوف لا تجف دموع وطنه بسرعة
وسوف لا تبقى حبيبته بعده كثيرا

حسن شريف الرشيدي

اقرأ المعرفة
لكي تزداد علما ومعرفة